وقفة: مع أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم

تعالوا بنا لنبحر في أخلاق رجل، حصر دعوته في إتمام مكارم الأخلاق، وإذا كان الحال كذلك فكيف تكون أخلاقه؟

فبعد أن اصطفى الحي القيوم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم لحمل أمانته، وتبليغ رسالته، امتدحه تعالى فقال:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤].

وهاهو صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه أحمد في مسنده:♂**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**═.

فيا عبد الله، ويا مسلم، إن الحديث عن أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم حديث طويل، ومع ذلك فهو شيّق وجميل، حديث ذو شجون، إذ إن النفس لتسمو، وتزداد القلوب إيمانًا عند سماعها الحديث عن أخلاق الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة إذا ما علمت أخي الكريم، أن الله تعالى قد جمع في نبيه جمال الخَلْق والخُلُق، جمال الصورة والهيئة، جمال المحامد والفضائل، فسبحان الله العظيم.

فلم يعرف في تأريخ حياته أي شطط أو انحراف، أو صفة مذمومة، أو خُلق سيئ قط، قالت أمنا خديجة رضي الله عنها واصفة إياه صلى الله عليه وسلم : (...إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر).

وليس خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها فحسب، بل لقد كان كما قالت رضي الله عنها، وكان كما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: (كان خلُقه القرآن)، رواه أحمد والبيهقي.

ذلكم هو المقصود في خطاب ربه:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤]، ولقد تحدث عنه أصحابه، ووصفوا أخلاقه، فكانت تلك الأخلاق أنموذجًا به يُحتذى، ومثالاً به يُقتدى، يقول هند بن أبي هالة: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُؤْيَس منه راجيه ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: " المراء، والإكثار، ومما لا يعنيه "، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، لا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه، وجمع له الحلم والصبر)، رواه الطبراني.

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يصف صاحبه وخليله محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقول: (كان يُقبل جميعًا، ويدبر جميعًا، بأبي وأمي لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق).

من أخلاق الحبيب المصطفى أيها الإخوة، العلم، والحلم، والرفق، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والصدق، والأمانة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، والسكينة، والجود، وحسن المعاشرة، يؤلف القلوب، ويجمع النفوس، ويصافي بين الناس، محمد صلى الله عليه وسلم لا يعادي، ولا يصخب، ولا يسيء، ولا يفحش في قولٍ أو عمل، هو الصادق الأمين، ورحمة الله للعالمين.

فهيا أخي الحبيب اغترف غرفة من كل خلق، وليكن لك في الاقتداء بأخلاق نبيك فضل السبق، حتى لا تتخلف عن ركبه، وحتى تلحق به صلى الله عليه وسلم ، وبصحبه رضي الله عنهم ورضوا

عنه.

يا لله من أخلاق رجلٍ خلقه القرآن، فما ساء قط، ولا ضرب بيده خادمًا ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل، ولله در أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يقول عن حبيبه صلى الله عليه وسلم : (خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فو الله ما قال لي أفٍ قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعت كذا، ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تصنع)، رواه البخاري.

أخلاق نبيلة، رفعة في غير كبر، وتواضع في غير ذلة، وهيبة في قلوب الناس، هيبة الرجل الذي اختاره الله تعالى رسولاً ونبياً، ويقول لمن دخل عليه فأصابته من هيبة النبي صلى الله عليه وسلم رعدة: ♂**هوّن عليك، فإني لست بملك، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**═، رواه الحاكم.

فما ذكر هو وقفة تأمل مع جانب من جوانب أخلاق نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نسأل الله أن ينفعنا بها، ويأخذ بأيدينا كي نقتدي به صلى الله عليه وسلم ، ونتأسى به وبأخلاقه النبيلة.

وإذا أردنا لأنفسنا النجاة، ولأمتنا النهوض من كبوتها، ولسفينتها أن ترسوَ على بر الأمان، فلا بد لنا من التخلق بأخلاق رسولنا الكريم، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *